

١١) بين الحقيقة والخيال

حول القومية في الأدب العربي . دحض بعض مظالم لحقت به

المؤستاذ عبد اللطيف المقرئى المفتسه بالمعارف

وفى يوم عطلة تاقت النفس إلى رحلة على متن النيل طلبا للراحة واستجماما للنشاط ، فركبت سفينة تتردد بركابها بين بعض المدن المطلة على نهر النيل ، وانتبذت فيها مكانا نعمت فيه بالهدوء وراحة البال ، وأشرفت منه على صفحة النهر الوضاعة : أرى مافيه من الإشراق والجمال ، وأحزاد الماء العذب يدفع بعضه بعضا ، ليسعف الوادى الخصب بحاجته من السقى غير وان ولا مقصر ، كأنما يضرب للناس المثل فى الوفاء — وأشاهد ماتخطه أنامل النسيم على وجه الماء من خطوط تضرب أمام العين إلى غاياتها المنشودة فى خفة وحسن ، كأنها كتائب أمل مشرق يزجيه النسيم إلى أفئدة الظاء فتعشهم ، أو سطور نور على صفحة النهر تمثل للناس أزكى ما يحمله الماء من معانى الحياة والرجاء والقوة والخصب — وأردد الطرف بين شاطئيه فلا يقع إلا على حدائق موقنة وزروع ناضرة حاذت النهر وسائرته ، كأنها تظهر له على طول الطريق شكرها على ما جاء به من نعم ، وأسدى إليها من جميل .

ولقد سماى هذا المنظر الساحر إلى آفاق من الجمال والروعة ملككت على فؤادى ، وأظفرتنى بمسرات روحية لا ترى النفس مثالا إلا فى حلم أو خيال ؛ فقد كان كل شىء باسماء ، وكأنما يحا ماء النهر ماران على قلوب النفس من شواغل الحياة وهمومها فبدت النفوس صافية والقلوب منسرحة . وفى مثل هذا الوقت تسفر الطبيعة وتنجلي فى أروع مباهجها وتبوح بأسرارها حيث يلتقى نور الروح ونورها فيمتزجان .

وبينما أنا مغمور بهذا الصفاء إذا طائر غريد على سارية السفينة فد قنته الطبيعة بجبالها فانطلق يصدح ويصرخ هذا الجمال نغما عذبا ، ويبعثه على أجنحة النسيم كأنه فى انسجامه قصيد : معناه النهر وبهاؤه والطبيعة وألوانها ، وقافيته خفقات النسيم المتلاصقة المنتظمة — فياله من شاعر أهدى إلى الفؤاد أجمل خلجات الأمانى ونوازع الأمل . وكنت حريا أن ألقى إلى هذا السحر الرائع بالا ، وأفرغ له بنفسى وشعورى ، وأستوعب ما أودعه الله فى هذا الصوت المطرب من جمال ومتعة .

فما راعنى إلا باز ألقى سريع الحركة قوى الوثبة ، يهوى على هذا الطائر الوديع الشادى ، فهالنى ما رأيت وخفق قلبى لذلك خفقة قوية ، وتملكتنى سورة غضب عاتية ، وتمثلت بهذا المنظر عدوان القوى على الضعيف بلاجريرة وقتكه به — وتلك الباية أشد مآلما الحياة وأحقها بالمت — وإذا كان الإنسان الموهوب عقلا وخلقا ومدنية وعلما يرضاها ويتحفز ويفتن فى الاستعداد لها بكل ما يملك من حول وطول — فلا نكران على الطير سليب العلم والعقل .

وفى لحظة مواتية وحركة موفقة تخلص الطائر الصغير وأسف قلعا جزوعا إلى مستوى سطح السفينة كأنه يستنجد بركابها من هول ما ألم به ، والبازى يتبعه، فلوحت له بمنسأتى فولى هاربامذعورا ، وتعلق الطائر الصغير بحافة السفينة عن كئيب منى ، فحمدت الله لنجاته من هذا الظالم الآثيم . وكنت أتعهده من وقت لآخر بالنظرة بعد النظرة ؛ لأطمئن عليه وآنس برؤيته ، فأجده لا يزال يطوقنى بنظره ذى البريق الخاطف ، فتضطرب لذلك نفسى بعض الاضطراب ، وكنت أحمل هذا على سروره بما قدمت له من معونة .

وما كان أشد دهشتى حين رأيته يدنومنى ويبد الخطا غير هيب ولا وجل ، ثم ينتفض انتفاضة يتكشف بها عن صديقى العصفور فوثبت إليه مصافحا وعانقته ، ودموعى ودموعه خير ترجمان على ما يكنه قلبانا من عوامل الود

والوفاء ، وهنأته بنجاته من خطر داهم ، فشكر لى صنيعى ، وطفقنا تنتقل فى نواح من الحديث حتى عاد إليه نشاطه ، ولمعت على أسارير وجهه علامات البشر والارتياح . فبدأنا حديث اللقاء :

— ١ —

أنا — كان لحديثك عن القومية التى يدعو إليها المجددون فى الأدب وقع حسن فى نفسى فهى بهذا المعنى الذى جلوته لخطرمنها على الأدب ، وتكاد تكون صبغة لأدب كل بيئة فى عصور الأدب العربى الغابرة ، فالأدب الحجازى ظرفه وعفته ، وللأدب البغدادى العباسى مجونه وصراحته وللأدب الأندلسى دعابته وخلاعته ، ولكل أدب طابعه الخاص مع ارتباط الأدب العربى جميعها بالذوق العربى العام وامتياحها من اللينوع العربى لغة وعرفا وثقافة فوق خصائص الأقليم الذى ينتسب إليه كل أدب .

فلست أرى للمجددين فى مذهبهم وضوحا ولا تحديدا ، ولعل هذا من الأقوال المهمة التى تلقاك برنين وقوة جرس وغمامة لفظ ، فإذا عرضت لها فى هوادة ورفق لم تجد وراءها شيئا جديرا بما قد أضعت فيه من وقت ، ورصدت له من نظر . فهل فى القول بقية تزيد هذه الدعوة إيضاحا ؟

العصفور — الحق ما رأيت يا صديقى . فإن هؤلاء المجددين يحومون حول معنى القومية دون أن يصوروها للناس واضحة ، ويذكرون أمورا عامة مرنة لا تصلح أن تكون أساسا للحوار — ويذهب بعض المجددين مذهباً يكشف لنا عن ناحية القومية غير ما كنت حدثتك به عنها : فيرى أن نمصر أيضا عراطفنا وشعورنا فنصبغهما باللون المصرى الخالص ، حتى يعرفا به كما يعرف كل أدب غربى بسمانه الخاصة .

وصاحب هذا رأى هو الأستاذ إبراهيم المصرى ، وتدعه يوضح لك رأيه إذ يقول : « هناك العراطف البشرية التى يقوم عليها الأدب كفن ، والتى قد تتشابه فى جرورها الإنسانى ، ولكن هناك أيضا اختلاف مظاهرها وتفاعلاتها ،

باختلاف أمزجة الأمم والشعوب . هنالك اللون الإحساسى الفكرى الذى يتميز به أدبا عن أدب ، ونعرف به روح أمة . وإذا كانت عبقرية الأدب الروسى تمتاز بالإنسانية العميقة والرحمة الواسعة ، وعبقرية الأدب الفرنسى بالموضوع والمنطق والنوازن ودقة التحليل ، وعبقرية الأدب الألمانى بسعة الخيال وانتقاد العاطفة والصوفية الفلسفية . فيجب أن تكون هناك عبقرية أدب مصرى لها طابعها الخاص فى النظرة إلى الحياة والتعبير عنها، فنحن إذا لم نصور الفرد المصرى ونحلله لم نعرف عاطفته، ولم نستطع بالتالى أن نفهم كيف يستقبل وجدانه مختلف شؤون الحياة، وكيف يتصرف حيالها، وكيف يعالجها ويفكر فيها» أنا: وهذا أيضا لانعارضهم فيه ولا ضير منه على العربية، ولعلك يا صديق توافقنى على أن كل إنسان حر فى التفكير ورياضة إحساسه على الطريقة التى يرتضيها . ولكنى أخشى أن تكون الدعوة إلى القومية فى الأدب طريقا إلى شيء آخر يضر العربية ، فهل أنت ذا كرتلى شيئا عن نشأة هذه الفكرة وتدرجها؟ وموقف الكتاب ورجال الأدب منها ؟

العصفور—من نحو نصف قرن مضى كانت الأفكار قد نشطت والهمم فى طريقها إلى تجديد مجد مصر ونهضتها على أسس قوية من العلم والفن والصناعة، بما يبشّر رجال الإصلاح وزعماء النهوض المتعاقبين—نضر الله وجوههم! وكان من ثمرات هذه الحركة شعور الأمة بمكائنها، وأنها ذات كيان يجب أن نعمل لصونه، فتما فى النفوس حب الاعتزاز بالمصرية والدعوة إلى مباحث القومية فى كل نواحي الاقتصاد والصناعة والفن لافى الأدب وحده . وكان من أوائل الدعاة إلى ذلك صاحب السعادة أحمد لطفى السيد باشا . ونورد عنه هنا نبذة صغيرة ذكرتها السياسة الاسبوعية حيث قالت « تراه فتحسبه من الطبقة العثمانية القديمة مع أنه أول من حمل على الروح العثمانية فى مصر منذ عشرات السنين ، وأول من قال باستقلال الروح المصرية عنها ، وأول من احتمل الأذى والنقد الشديد من

أجل هذه الدعوة القومية المصرية أيام أن كان جهد الفخر عند المصريين أن يكونوا عثمانين ، وهذه الكلمة تلقى وضحا عظيما على جانب كبير من نشأة القومية المصرية . وكان من الكتاب الناشئين المرحوم محمد تيمور الذى يدعو إلى النومية المصرية فى الأدب بحماسة عظيمة ، وقد غذى المسرح المصرى بكثير من الروايات ، وخلفه أخوه الأستاذ محمد تيمور الكاتب القصصى المعروف . ولقد صادفت هذه النزعة هوى فى النفوس منذ الدعوة إليها فسارت فى طريقها أرل الأمر وانية تصطدم بعقبات حينما فتقف ، وتغلب حينما عليها فتندفع فى طريقها إلى غايتها المرجوة .

وكان من ثمار الحرب العالمية الكبرى أن تطلعت مصر إلى حريتها ، وفاضت صدور أنبائها بالامل العظيم ، واضطربت نار الحماسة فى قلوبهم ففاضوا انضالا هائلا ، عليهم كيف يكون الاعتماد على النفس والغضب للكرامة والاعتزاز بالقومية ، فنشطت الدعوة إليها ، وتناولتها فى صور مختلفة ، وكان مصير الأدب رهنابأن يمسسه شئ من هذه الدعوة فكان ما قصصته عليك من أمرها فى موقفنا السابق .

أما الكتاب ورجال الأدب فمنهم من التزم جانب الصمت وطلب العافية ، فلم يشرع له قلما فى هذه السبيل ، ومنهم من ركب هواه قشيع لها وناصرها بقوة ، ومنهم من أوجس فى نفسه خيفة فعارضها — وإنى لسائق إليك بعض أقوال المعارضين حتى تقدر بنفسك مايجول فى صدور هؤلاء من الخوف على اللغة من هذه النزعة ، ومايحتلج فى أفئدتهم من أمور . ونبدأ بقول أمير الشعراء المرحوم شوقي بك ، قال :

« وأولئك الذين يطالبون أديبا مصر باغير شائع فى العالم العربى ، ولايستوحى
الأدب العربى القديم : إما أن يخلقوا لمصر لغة أخرى يسخرونها ويعشون بها
كما يشاءون ، وإما أن يستوحوا للأدب المصرى المزعوم لغة من لغات

الغرب . ولن يكون هذا الأدب يومئذ إلا علما مزيفا على مسمى ، لأفضل لهم فيه إلا أفضل الترجمة عن قوم يتكلمون بغير لساننا ، ويعيشون في غير جونا ، ويظلمهم من النظم والعادات والأخلاق مالا يظلنا — وإما أن يقفوا عن استيحاء الماضي العربي والحاضر الغربي ، ويكون مثلهم حينئذ كشلول الذاكرة حيل بينه وبين الماضي ، والماضي أطول من الحاضر وأحفل ، وهو أفسح مجالا لخيال الأدباء والشعراء .

ومن بين آداب العالم كلها لم أسمع بأدب تنسك حاضره لماضيه ، واستطاع أن ينهض على ساق . إن الأدب المصرى والأدب البغدادي والأدب الأندلسي والأدب الأموي والأدب العباسي ، ليست كلها إلا نعوتا لزمان الشاعر العربي أو مكانه ، يمددها الوحي العربي كلها ولا يختلف بعضها عن بعض إلا في ظروف العصر والمكان .

واستمع إلى غضبة الدكتور على العناني على المجددين الداعين إلى القومية في الأدب ، إذ يقول :

« تصدر في مصر فريق غير ناضج في الثقافة العامة ، مدعيا معرفة كل شيء ، وناصبا نفسه إلى الإرشاد في كل شيء ، أو بعبارة عامة إلى القيادة الفكرية ، ولا يتورع هذا الفريق — مع الأسف الشديد — عن التعرض لما لا يعرف ، ويقرر حكمه فيه . والأمثلة على ذلك كثيرة جدا نذكر من بينها تلك الدعوة العجيبة إلى اشتغال الشباب المصرى بأدب قومي مصرى ، وما يتبع ذلك من إهمال جانب الأدب العربي العام — وبربك خبرني أين هذا الأدب القومي المصرى ؟ أهو أدب الفراغة ؟ أم أدب العرب المصريين ؟ وفي أى لغة على كل حال قد دون هذا الأدب ؟ أفي اللغة الهيروغليفية ؟ أم في لغة مصرية أخرى موهومة ؟ أم في لغة العرب ؟

وإذا كان هذا الأدب القومي المصرى مدونا في لغة العرب فأدب هذه اللغة

هو أدب اللغة العربية العام منذ نهضتها الجاهلية الأولى حتى الآن ، وغاية الأمر أن مصر لها ذوق خاص فيه كما لسوريا وفلسطين والعراق واليمن ونجد والحجاز وبلاد أفريقيا الشمالية وأفطار الأندلس — من الأذواق الأدبية المختلفة، وكل واحد منها متوقف طبعاً في فهمه واستساغته على فهم الأذواق العربية الأدبية الأخرى في جميع أقطارها المترامية ، وبالجملة فهذه الفكرة الزائفة، والدعوة الهوجاء إليها ، مع ما فيها من قول خلاب ونزعة وطنية ظاهرة برافة ، ليس فيها سوى إغراء الشباب ضد الحضارة العربية والتضليل به في هذا السبيل .

وهذا الأستاذ صاحب المعرفة يقول « قامت منذ سنوات معدودات فئة تدعو إلى تمصير الأدب العربي ، أو خلق أدب قومي ، فصفق لها جماعة من المتأدبين ، وهلل لها جمهرة من الشباب المتحمسين ، ولا ضير في هذا كله ماداموا للعربية حافظين — لكن إلى جانب هذه الفئة فئة أخرى تدعو إلى خلق أدب مصرى خالص لا يمت إلى الأدب العربي بصلة ولا يرتبط والعروبة بوشيجة أو نسب .

وقد أخذت هذه الفئة الثانية تروج لدعوتها بكل ما فيها من قوة وحماسة ، واستغلت أكثر مما استغلت الأولى روح الشباب المتوثب ، وتغنيه بما أثر أجداده القدماء ، وترداده لكلمات الوطن والوطنية ومصر والمصرية ، وما إلى هذه من أسماء ومسميات — ونود الآن أن نقرر لأصحاب هذه الفكرة الجديدة — فكرة الأدب المصرى الخالص — أن فكرتهم على ما بها من جدة لا تقوم على أساس على صحيح ، فهذا الأدب المصرى الخالص الذى ينادى به أشياعه ليس إلا أدبا زائفا لا يعتمد على نفسه ، وإنما يعتمد على غيره من الآداب . وما من شك في أن الأدب المصرى في لحنه وسداه ليس إلا الأدب العربى مهذبا . والتفكير العربى بمصرنا . فإن أبى أصحاب الدعوة إلا الإنكار ، فليدونا على اللغة القومية التى بها يكتبون ، فإن كانت الهيروغليفية أو القبطية أو

العامة المصرية — وهذه هي اللغات المصرية — سلمنا لهم بما يدعون . أما إن كانوا يسجلون خواطرهم ويرسمون أحاسيسهم بغير لغة من تلك اللغات، فذلك هو المنطق المعكوس بعينه، والشئ الذى لا يصح فى الأذهان . وإنما الذى يستقيم والمنطق : هو أن لنا أدبا عربيا مصريا : عربيا من حيث اللغة والإنشاء ، مصريا من حيث التفكير والأسلوب .»

— ٢ —

فترى مما قصصته عليك مقدار المعارضة لهذه الفكرة من بعض الأدباء والمفكرين . ومن بيانهم وأدلتهم التى ساقوها فى اتزان واعتدال حيناً ، وثورة وغضب حيناً آخر — تقدر منزلة هذه النزعة من الحق . فإن الدعاة إلى هذه الفكرة إما أن يتخذوا لهذا الأدب لغة موضعية أخرى غير العربية من اللغات التى مرت بك ، وهذه اللغة لا تحقق الفكرة أيضا لقصور هذه اللغة عن البيان والثروة الفكرية فى اللغة العربية ، ولن يقوم أدب حديث على غير سالفه من أدب قديم ، ولا صلة ماضية متينة تستند إليها دعائم هذا الأدب ، وتستمد منها أسباب القوة والاستقرار كما يقول أمير الشعراء « ومن بين آداب العالم كلها لم أسمع بأدب تنسك حاضره لماضيه ، واستطاع أن ينهض على ساق » . وإما أن يستوحوا لهذا الأدب لغة أخرى غريبة ، وحينئذ يكون هذا الأدب المزعوم صرورة ممسوخة وهى التى وصفها أمير الشعراء بقوله « ولن يكون هذا الأدب يومئذ إلا علما مزيفا على مسمى لا فضل لهم فيه إلا فضل الترجمة عن قوم يتكلمون بغير لساننا ويعيشون فى جو غير جونا ، ويظلمهم من النظم والعادات والأخلاق ما لا يظاننا » .

وإما أن يصدفوا فى الأدب القومى المزعوم عن الماضى العربى والحاضر الغربى فيكون أدبهم أعجف خاويا من رسائل القوة والخصب ، وينقطع عنه الغذاء الصالح حتى يموت ، لأن أهله فى هذا الموقف يكونون كما صورهم أمير الشعراء

بقوله « ويكون مثلهم حينئذ كمشلول الذاكرة حيل بينه وبين الماضي » .
ولعلك يا صديق بعد أن سمعت أقوال هؤلاء المعارضين ترى أن فكرة
القومية التي يتصدها المجددون غير واضحة المعالم، ولا محدودة الغرض، فهي لا تزال
تضطرب في كثير من الإبهام والغموض، ولهذا تلجس الحيرة في فهمها شائعة بين
أقوال المعارضين، فتناولوها في عموم شامل، وعارضوها على أنها فكرة مطلقة
تحمل معها الخطر على العربية، ولم يعرضوا لها في شيء من التفصيل يلقي ضوءاً
على الغرض منها، وما حدثت بك به عنها في المقال السابق يبدو أوضح الأغراض
من هذه الفكرة وأقربها إلى العقل والقصد في التجديد الحسن — وهذا القدر
الذي أوضحناه متحقق في الأدب العربي قوة وضمناً في كل بيئة حل بها، ولا بد
لكل أدب أن يكون صورة لزمانه ومكانه إلى حد ما، ولا بد له أيضاً أن يجاوز
حدود الإقليمية حتى يضرب في عالمية الأدب بسبب، ويمت إليها بنسب — وأدبنا
العربي على الرغم من حملات المجددين عليه واتهامه بالقصور عن مسيرة روح
العصر، وأن ذوقه لا يزال عباسياً لامهرياً — يتبع في نهوضه السنن المألوف
الذي يوائم طبيعته وروحه، ويظفر من أساليب الابتكار والتجديد بالقدر الذي
يجوز به الزمان، وتسمح بقبوله الأذواق العامة، والطفرة به ضرب من المحال،
وتتوهم على النواميس الطبيعية .

ونظرة يسيرة إلى حال الأدب الآن وحاله منذ نصف قرن تريك قدر
النهوض السريع العظيم فيه .

ثم ما بال هؤلاء المجددين يصخبون ويضجون في غير هودة ولا رفق،
ويصلون ليلهم بنهارهم في النقد والتهكم والسخرية من الأدب العربي ورجاله .
ولا يطلعون على الناس بمذهبهم الجديد من صياغة مبتكرة وذوق مصري
محض، وقومية إقليمية، وأسلوب طريف بجانب الصناعة، ويخالف أسلوب ابن
المقفع والجاحظ والحري والهمداني كما يقولون ؟

وإن هذا يقوم هو المنطق المعقول، وطريق الإقناع والهداية إلى ما تريدون .
أخرجوا للناس نماذج مما تدعون إليه من الأدب الحديث قبل أن تقضوا على
الأدب القديم ، وأنتم الذين كرتهم من الآداب اللاتينية القديمة والغربية الحديثة ،
ونصبت للناس موازين الحكم بين الآداب العالمية كما تزعمون . هذه دعوة صادقة
يطرب لها كل عاقل ، ويقرنا عليها الحق والمنطق ، وقد انصفتكم بها فاستجيبوا
لها إن كنتم في دعوتكم جادين ، وإلا فقد عرف الناس أنكم لاهون هازلون ،
وكنتم إذ تقضون على القديم ولا تقيمون حديثا مكانه كمن حمل معولا وهوى
على بيته هدمًا وتخريبًا ، ثم جلس على أنقاضه صاخبا با كيا كما تصخب اليوم
والغربان على الأطلال البالية والرسم الدارسة .

أنا - رعاك الله وأدام توفيقك يا صديقي العصفور ! فلقد أحكمت القول في
نشأة القومية وتدرجها وأرضيتني بما سقت من آراء المعارضين لها ، وأخذت
بزمام الحق في دعوتك المجددين إلى إعلان مذهبهم حتى يتضح للناس صدق
فكرتهم وحقيقتها ، وهذا حق لا ينازعك فيه منازع ، وما كنت أظن أن يبلغ
عليكم يامعشر الطير بأدبنا وظواهره ما قد رأيت اليوم : من سعة اطلاع ، وعظيم
إحاطة ، وإتقان رصد ، وصدق نظر . وإني لمعجب بك شاكر لك .

العصفور : الحق أن هذه الدعوة لا نبعث في النفس الاطمئنان على العربية ،
وقد يكون في طيها غرض آخر ابعض المجددين لم تفصح عنه الأيام بعد - ومهما
يكن من شيء فلا بد لنا من الاعتصام في هذا الموقف المبهم بحسن النية ، حتى
يظهر لنا خلافه ، فذلك أولى بمن يسلك سبيل النزاهة في البحث . وعلينا تلقاء
حسن الظن الذي تلوذ به أن نغض الطرف عما تبعته أقوال المعارضين السابقة
في النفس من التشكيك في أمر هذه الدعوة والتحذير منها ، كما نعجب العجب كله
من انقباض هؤلاء المجددين عن الثقة العربية ، وإقبالهم كل الإقبال على مظاهر النفاذة
الأوربية والهيام بها ، ومنطق العدل يتقاضاهم أن يصدوا عن كل ثقافة غير مصرية أو

يساوا بين الثقافات جميعا، وإنى لمقتنع بأن الدعوة إلى القومية في الأدب مظلمة صبتها الأيام على الأدب العربي، وكل لها من مظالم رمتها بها فتلقاها صابرا محتسبا، ومضى في سبيله يقارع الدهر ويغالب الأيام بما كتب له من خلود.

أنا — تطربنى معدلتك في البحث، وعلاجك الأمور بحكمة وروية، واعتصامك بالخلق السرى، فلا تميل إلى هوى، ولا تطوى عن الناس أمرا وتبسط لهم أمرا؛ ليستقيم لك ماتريد، وهذا أسمى ما يتطلبه الحق الذي تجنح إليه النفس الفاضلة، وتلك إحدى مكارمكم يامعشر الطير. كنت أود أن ينسج على غرارها عندنا بعض النقاد الذين يتناولون الأدب على أنه سلعة ترتفع قيمتها وتنخفض في سرق الهوى؛ تبعا لما ينالهم من ربح خسارة، ولقد أيقظت في نفسي حب الاستماع إلى بعض تلك المظالم التي لصقت بالأدب العربي، فهل لك أن تقفني على شيء منها فأكون شاكرا.

— ٣ —

العصفور: إنه ليسرني أن أسوق إليك بعض صور من هذه المظالم غير مظلمة القومية في الأدب التي فرغنا منها — فمن هذه المظالم مظلمة جديدة وليدة سنوات مضت وهي « أن الشعر العربي غنائى » ويقصد القائلون بذلك أن الشاعر فيه يتغنى بما يمس وجدانه وحده، وينبعث عن شعوره وأمانيه وأحلامه الخاصة في أسلوب موسيقى هزاز ساحر، فهو غريق في الفردية، بعيد عن إحساس الجماعات وتصوير المثل العليا لها في الحياة، وتحليل ما تضطرب به دنياها من حقائق وتجارب وفلسفة ومعان سامية تتصل بكل نفس، ويمش لها كل فؤاد.

وقد سرى بين كثير من الأدباء هذا الرأي وتصايحوا به، ولجوا في إشاعته بين الناس، كأنه نصر جديد في الأدب، ولم يكلفوا أنفسهم عناء التفكير في صحة هذا الحكم، فهذا كاتب مصرى يقول « لذلك جاء الشعر العربي شعر اغنائيا بوجه

عام ، شعرا يعبر عن شعور الشاعر نفسه ، ويصنوع ما يحيط به تصويرا صادقا بديعا ، فهو شعر يغذى الإحساس والشعور السطحي ، ولا كنهه يعجز تماما عن تغذية الروح . وهذا الرأي قد رآه من قبل الأستاذ «جيب» مدرس اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ولعل رأيه هو مبعث هذه الفكرة لدى أدبائنا المجددين . ونورد رأيه هنا مأخوذا من مقال للأستاذ محمد علي المحامي . قال « من أهم مميزات الأدب العربي والفارسي أنه عاطفي (Romantic) وأن الطالب الذي نشأ على حب المنزل اليونانية في الأدب لن يجد في أدب العرب والفرس تلك الصفات التي امتاز بها أدب اليونان ، والتي هي السر في قوته الساحرة الياقية على مدى الزمان ، ويرغم مافيه من قوة الصياغة فإن فيه جمردا ، وفي أدب اليونان تنوع ، وفيه إغراق ومبالغة ، وفي أدب اليونان شدة واتزان — وقد بلغ الكتاب اليونان واللاتين ما بلغوه من العظمة بتوخي السذاجة والسهولة ، وعدم الاندفاع — على حين أن الكاتب الشرقي ينسج آياته فيملؤها بالبديع الغامض من اللفظ ، ويلتمس لها الاستعارات والكنايات البديعة الخلاقة ، واليوناني يؤثر في الفكر بوساطة الجمال الخالص ، أما العربي أو الفارسي فيؤثر في الحاسة وفي الخيال بما يأتي من الألوان الساحرة . »

فالاستاذ «جيب» في كلمته هذه يرى أن الأدب العربي عاطفي أو غنائي ، وأنه يخالف الأدب اليوناني في أمور منها : أن الأدب العربي فيه جمود ومبالغة ، واليوناني فيه اتزان وقوة وتنوع ، والأدب العربي يعتمد فيه الكاتب أو الشاعر على قوة الصياغة والتأثير بالالتجاء إلى الإكثار من البديع الغامض والاستعارات والكنايات البديعة ، واليوناني يعتمد على السذاجة والسهولة وعدم الاندفاع ، والعربي يؤثر في الحاسة والخيال بما يأتي من الألوان الساحرة ، واليوناني أو اللاتيني يؤثر في الفكر بوساطة الجمال الخالص .

والحق أن الأدب العربي ليس غنائيا أو عاطفيا فقط كما يقول الأستاذ

« جيب » والمجد دون الذين يرون هذا الرأي . فقد عرض أدبنا لنواح آخر كثيرة غير العاطفة ، وترفع عن الفردية المطابقة التي يرمونها بها إلى أسس آفات الحكم والزهد وتهذيب الخلق ونصرة الفضيلة وآداب السلوك .

ولولا خلال سننها الشعر مادري بناء العلا من أين توثق المكارم وعرض لوصف الطبيعة وأسبغ عليها من ضروب التشبيه والإبداع ما يعد مفخرة له بين الآداب العالمية ، لنفوذ بصيرة شعرائه وكتابه إلى أسرارها ، ولا نظن أحدا من أدباء الغرب يفوقهم في هذه الناحية - وقام بما يرجى منه في النضال الحزبي بين الطوائف الدينية والسياسية ، وكرع من الفلسفة ماشاءت له طبيعته ، ووصف المعارك والجوش والأساطيل وغيرها بأسمى ما يتطلبه العقل البشري ، فكيف يصح وصفه بأنه غنائى أو عاطفى فقط ، والتغاضى عن المعانى العالمية ، والأفكار الاجتماعية التي تعلو على الفردية وتتصل بحياة الجماعات اتصالا وثيقا ، فتتير لها سبل الحياة العملية والروحية ، وتضع بين أيديها كثيرا من نظم الهداية وآداب السلوك . والآدب العربى فياض بمثل هذه المعانى العالمية ولعل كثرتها فيه من خصائصه الواضحة لكل من سبر غوره ، وتعرف إليه فى نصفه وتحفظ ، ولولا أن تعرضنا لذكر أمثلة مختلفة لما مضى نبد بنا عن الغرض الذى نرجو بيانه فى هذه العجالة ، لحشدنا طوائف من الآدب العربى تؤيد ما نقول . والذى يزهنا فى ذلك قربها من تناول اليد والعين فى مصادر الآدب العربى الكثيرة . على أن الذى يدهشنى حقا إنكار العاطفة على الآدب العربى وهى أساس كل فن - وخاصة الآدب - وروح النبوغ فيه والسموبه فهل يظن المجددون والأستاذ «جيب» أن هناك أدبا يخلو من العاطفه فى الآداب العالمية كلها ، ويعد نفسه لوصف حياة الجماعات من علاج مصاعبها وحل المعقد من أمورها ، ووضع المثل العليا لاسعادها ؟ إن مثل هذا الآدب لحرى أن

يوصف بأنه مجموع قوانين تعتمد على العقل والمنطق ، لاعلى الوجدان والخيال .

وليس عيبا اعتماد العربي على ضروب الزخرف المعقولة من استعارة وكناية وتشبيه وبديع ، لئال بها مواقع التأثير من سامعيه ، فاسكل لغة ثروتها من هذا الزخرف ، وحظ اللغات منه يختلف قوة وضعفا ، والعربية أو في نصيبا من غيرها في هذا ، إذ ، كانت أوفر اللغات مادة ، وأغزرها ثورة ، فليس محظورا على أبنائها أن يحلوا بيانهم بما شاءوا من هذا الطراز الفاخر المجيد .

ولا أريد هنا أن أدعو إلى الأخذ بالصناعة والإسراف فيها كما فعل بعض متقدمي المولدين كأبي تمام ومسلم ، وأدباء عصور الضعف الأخيرة ، فهذا أمر أطبق رجال النقد على إنكاره ومجافاته للذوق السليم ، والفطرة العربية الصادقة . وليس من حق الذين يرمون العربية بالإغراق في الصناعة أن ينظروا إلى أمثال هؤلاء ويجعلوا تراثهم أساسا للحكم على العربية بالإكثار من الصناعة ، ثم يهملوا عمور القوة والإشراق التي كانت اللغة تنجلي فيها بصناعة مقبولة ، تزيدها قوة على قوة ، فإن هذا ليس من الإنصاف في شيء .

ومن ذا الذي يشاء أن ينكر على العربية التحلى الصناعي ، الذي يجرى على قدر تألفه النفوس وترتاح إليه الأسماع ؟ إن الغانية قد تغنى بجمالها عن الحلية ، ولاكنها إذا ازينت بها أضافت إلى جمالها جمالا . وهذا باب يحسن ألا ندعه حتى نضرب بعض أمثلة تقرب قصصه وتوضح خفيه . انظر إلى قول ابن سفر الأندلسي يصف المد والجزر في نهر :

شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره

فضاحكت ورق الحمام لأجله هزوا فضم من الحياء إزاره

فهل رأيت حسن تعليل لظاهرة المد والجزر أبدع من هذا ؟ ولولا هذا الخيال الرائع ما بدت الحقيقة مؤثرة كما ترى — وكان في الامكان أن يرد الشاعر

الحقيقة إلى السذاجة والفطرة فيقول : طغى ماء النهر على شاطئيه بتأثير المد والجزر، ورجع إلى أصله حين زالت الدواعي ، ولاكن أين تقع هذه الصورة الهزيلة المقفرة من روح الخيال وحسن التعليل ، من الصورة الأولى الرائعة ؟ أبعث هذا يعيرون علينا أدبنا ؟ اللهم إني بمثل هذه الصناعة من المعجبين ، فزدني بها علما .

إن الصناعة في ذاتها ليست معيبة بل هي من أسباب الروعة والجمال الفني ، وهي في يد الشاعر أو الكاتب الموهوب مبعث فتنه ومطلع إشراق ، وملتقى ألوان ساحرة يؤثر بها صاحبها في الحاسة والخيال كما يقول الأستاذ «جيب» ولا عاب علينا في ذلك مادامت قوة الشاعر أو الكاتب تصرفها في آفاق من الإبداع والإتقان . تأمل قول شاعر الطبيعة الموهوب ابن خفاجة الأندلسي إذ يقول .

يا ليل وجد بنجد أما لطيفك مسرى؟
وما لدعوى طليقا ونجوم الليل أسرى
وقد طمى بحر ليل لم يعقب المد جزرا
لا يعبر الطرف فيه غير نهر المجرة جسرا

فهذه قطعة مصورة من الطبيعة ، وقد اخترتها مفعمة بألوان الصناعة ، ومعناها جميل رائع ، وخيالها حسن ساحر ، فقد عنى فيها الشاعر بالجناس بين « وجد ونجد ، ومسرى وأسرى وجسرا » وبالطباق بين « انطلاق الدمع وأسرى النجوم » وشبه الليل ببحر لأنه جياش الظلام متموجه كلبجة البحر المواره ، ترمى بالموج المتتابع ، وذكر المد والجزر وعبور الجسر ترشيحا لهذا التشبيه الصادق ، فجاءت القطعة رائعة النسيج والمعنى . فهو يقول « يا ليل الوجد ، هل يسرى طيفك الذي أمضى ثباته ، وأقضى مضجعي استرساله ، وما لدعوى طليقا لوجدى وحزنى ونجوم الليل أسرى ثابتة في مكانها لا تؤذن بتحوله وتقضيه ؟ وقد طمى الليل

وترامى ظلامه إلى أطراف الأفق كما يترامى ماء النهر بتأثير المد فيه، وظل مسترسلا في طغيانه لم يلحقه جزر — وترى المجرة التى تشبه النهر فى ضيائها واسترسالها قد شطرت الظلام فى رأى العين شطرين، فكأنها بين شقى الظلام قنطرة تعبر عليها العين من أحد الشقين إلى الآخر « وتلك معان قد آزر فيها الفكر الصنعة، حتى برزت الصورة واضحة جميلة كما رأيت .

ولو أن الشاعر قال « طال ليل الوجد ولم يتحرك طيفه ودمعى يسيل، والنجوم ثابتة وترى الليل مظلما لا يضيء فيه غير المجرة » لما كان لهذا الكلام التأثير الذى تراه فى الصورة الماضية .

ومن هنا يظهر أن الشاعر الموهوب لا تنعوقه الصناعة عن بلوغ الغرض، لأن قدرته تعينه على صوغ الصورة الفنية كما يشاء بمزوجة بألوان الصناعة — بل إن الصناعة والخيال مما يعين على تنمية المعانى، وبسط أفقها أمام الشاعر أو الكاتب؛ فلو لا تشبيه الليل بالبحر وذكر الترشيح لهذا التشبيه لحرمان معنى البيتين الأخيرين، ولو وقف الشاعر عند معنى الأولين .

والصناعة إنما تقبح وتسمج إذا تناولها شاعر أو كاتب ضعيف مريض، الذوق غليظ الطبع قفر الخيال سائب الهبة الفنية، وتكون الصناعة فى يده كأوتار العود فى يد المشلول إذا حركها بيده أتت بأقبح النغم وأبغض الإيقاع، ولهذا قبح الشعر فى عصور ضعف اللغة . ولسنا نعارض المجددين فى أن هذا النوع من الصناعة المريضة المألحة فى الإسراف مفسد الأدب — ولا نريد هنا أن نورد شيئا من هذا النوع البغيض ضنا بالذوق والفطرة .

وإذا كان اليونانى قد أثر فى العقول بقوة الفكرة والجمال الخالص البعيد عن الصناعة كما يقول الأستاذ « جيب » فذلك لأنه نشأ فى بيئة منطقية فلسفية لا تلائم الصناعة كثيرا — ولم يشأ العقل اليونانى أن يقف بعيدا عن الصناعة، بل أحب أن يأخذ منها بالقسط الملائم، وظهرت الدعوة فى الأدب اليونانى

إلى ذلك، وأول بادرة فى هذا السبيل رسالة تسمى «رسالة لئيجنيرس فى الجلال» عرض لوصفها، وذكر بعض الغرض منها الأستاذ «لاسل آسل كرمي» أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة لندن فى كتابه قواعد النقد الذى ترجمه الدكتور محمد عرض حيث يقول فى صدرها «وهى كتاب كاد فى بعض الأحيان أن يجارى كتاب الشعر لأرسطو فى الأهمية — لكنه كتاب نقد صرف، ولا يستند إلى نظرية فلسفية فى الأدب، وهو وإن كان من تأليف كاتب يونانى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد، فإن أهميته فى تاريخ النقد حديثة، ترجع إلى عام ١٥٥٤ حينما طبع الكتاب للمرة الأولى.... وكلمة الجلال هنا لها معنى خاص خلاف المؤلف. ذلك أن المؤلف المجهول أراد فى كتابه هذا أن يصف طبيعة الأسلوب، الأدبى، الذى من شأنه أن يسمو باللغة فوق المستوى العادى للألفاظ.... فإن من رايه أن الأمور التى ترفع الأسلوب وتجعله — مثل جلال الموضوع المتخيل وقوة العاطفة البالغة أقصى حد، والمقدرة على حسن استخدام ضروب وأشكال من وسائل التعبير اللفظى — جديرة عند التحليل أن تكون قواعد للأسلوب الجيد» ويقول الأستاذ لاسل فى مدح الصناعة فى هذا المقام وفى تأثير مذهب المؤلف اليونانى أولئيجنوس فى بعض الآداب الغربية «ومن الناس من يزعم أن ملكة الشعر هى مجرد هبة من الطبيعة. وليس من شك فى أنها من هبات الطبيعة مثل الحظ الحسن... ولكن كما أن الحظ المؤاتى لا يمكن أن ينتفع به على الوجه الأكمل إلا بحسن التدبر والتعقل — كذلك من العقل أن يصغى الشاعر إلى صوت الصناعة إذ ترشده إلى كيفية استخدام ماحبته به الطبيعة. هذا الضرب من النقد الذى نستطيع أن نسميه النقد الأسلوبى وهذه النظرة الخاصة إلى الأسلوب قد ظهرت آثارهما فى الأدب الإنجليزى فى كتابات «بن جنسن» (Ben Jonson) كان جنسن هو المثل الأعلى الذى عاش فى العصور التالية، ونشأت بعده مدرسة سميت مدرسة (بن) واتصهر لها بعد ذلك الشاعر دريدن «Dryden».

من هذه الكلمة يتبين عطف القوم من يونان قدماء ، وغريبين ناشئين على الصناعة وتقديرهم بها في تراثهم الأدبي . فما بال المجددين وغيرهم يغضون من قيمة أدبنا لأجلها ؟ وإذا كان هذا الحكم منظورا فيه إلى عصور التأخر والعنف فلماذا أقاموه على تلك العصور ، ولم ينظروا إلى عصور القوة كما أسلفنا ؟

ولقد تأتق الشعراء في الأدب العربي في اختيار أساليب معينة والتزموها في الشعر حتى عرفت بأنها أساليب شعرية ، ومخالفتها ليست مقبولة في الذوق الشعري ، وإن كانت مقبولة في الذوق اللغوي — وتظرف الكتاب وبالغوا في الترف الكلاسي ما شاء لهم ذوقهم ، وسمح به ظرفهم ، حتى أحدثوا لهم عرفا كتابيا خاصا ، فتخيروا ألفاظا كتابية مألوفة وصار العدول إلى غيرها جنرة لفن ، وإن لم تنكره اللغة . ومثل هذا النائق الفنى تراه قد ظهر في الأدب الغربى وكأما أوحى به اليهم الأدب العربى الذى سبق الأدب الغربى فى ذلك . ويحدثك الأستاذ لاسل آسل كرومبى عن هذه الظاهرة فيقول « هذا وأكبر ما يمتاز به الأسلوب الشعرى فى القرن الثامن عشر هو نخامة اللفظ . . وإذا صح القول بأن الشعر فن عقلى ، أليس الواجب فى هذه الحالة أن يلزم طرازا واحدا من العبارة اللفظية يكون أكثر ملاءمة له من سواه ؟ وبناء على هذا أخذت تسود الفكرة القائلة بأن ضروبا خاصة من التعبير هى بطبعها شعرية ، ويمكن استخدامها فى جميع المواقف الشعرية ، وما سراها لا يصح استخدامها . ولعل أكبر ما امتاز به أدب القرن الثامن عشر أن استطاع إيجاد عبارة شعرية تبقى — فيما يظهر — بجميع الأغراض الشعرية . ولكن الحقيقة أنها كانت وافية بأغراض محدودة ، وبضروب خاصة من التعبير لا تعدوها . وقد كانت ثورات قام بها أفراد من آن لأن على ذلك المذهب فى القرن الثامن عشر نفسه . ولكن الذى حمل عليه حملة قضت على مزاعمه قضاء تاما هو الشاعر وردسورث (Word Sworth) حين كتب فى عام ١٨٠٠ مقدمة لكتاب قصص وأنشيد (Lyrical Ballads) أنكر

فيها أن هنالك عبارة شعرية بطبعها ، وقال إن اللغة الصحيحة للشعر هي اللغة التي يتكلمها الناس والذي يجعلها لغة شعرية هو كيفية استخدامها .. ولقد أفسح ورد سورث الطريق أمام أصحاب المذهب الحر (الرومانتزم) وجميع المذاهب والحركات الفكرية التي تبغى التحرر من قيود الأسلوب ، ولكن ليس معنى هذا أن الدروس التي أملأها القرن الثامن عشر ضاعت هباء . بل لا تزال الآراء المألوفة في النقد يظهر فيها الأثر الهائل الذي تركه لنجينوس وابن جنسن »

نسوق هذه الأدلة كلها للمجددين ليعلموا أن الصناعة حظ شائع بين آداب العالم جميعا ، وإن اختلفت قوة وضعفها ، وأن الآداب الغربية مرت بها مؤثرات تشبه المؤثرات التي مرت بأدبنا العربي ، وتمر به كالصناعة ، والتزام عبارات شعرية وما الخلاف بين الرومانتيكيين والكلاسيكيين الذي نشأ في الأدب الغربي إلا صنو الخلاف بين المحافظين والمجددين في الأدب العربي الآن .

وبعد هذا فما فضل المجددين في دعوتهم ؟ إنا نراهم بانصاهم بالآداب الغربية قد تأثروا بما وجه فيها النقد إلى الصناعة وإلى زخرف الأسلوب والنسج على منوال الطريقة المثالية القديمة ، وتأثروا كذلك بما يتعرض له الشعر والشر في هذه الآداب من الإلمام بموضوعات تمس الحياة العامة ، والتحليل لمواقف دقيقة مختلفة ، فأرادوا أن يحاكيوا الغربيين في هذا كله ، فحملوا على أدبنا العربي بمثل ما حمل النقاد الغربيون على أدبهم ، فليس لهم في ذلك إلا فضل المحاكاة ، وغنى عن البيان أن فضل الابتكار والاختراع أجمل وأولى من فضل المحاكاة ، فليدعوا الشرقيين المحض وشأنهم في هذا السبيل ، فإن فاقد الشيء لا يعطيه ، وليطلبوا على الناس بمذهبهم فإن عصر القول قد مضى مملولا ، ومن علم فعليه أن ينفع الناس بثمار علمه وفضله .

أنا — جزاك الله خيرا يا صديقي العصفور على ما قدمت لأخيك من حسنات لم يوفق إليها من قبل ، ولقد دفعت عن أدبنا العربي مظالم أوشكت

أن تنزل من الناس منزلة الحقائق، وكشفت عن نواح كثيرة كنا نظن أنها ثمرة
عمرل المجدين، ووليدة قرائحهم فإذا هم فيها محاكون.

ولاحت في الجو ثكنة من الطير تسعى إلى عشائها، وقد أدركها الليل،
فلما رآها حن إليها حينئذ شديدا تبين أثره في عينيه، واضطرب اضطراباً قوية،
عاد بها عصفورا يخترق أجواز الفضاء، ثم حلق في الجو، وخفق بجناحيه
خفقتين إيماء لي بالتحية والوداع، ولحق بالثكنة واندمج فيها.

عبد اللطيف المغربي